اللّغز الشّعبي بين النشأة و التطور

أ. كمـال بن عمـر

الملخص:

Résumé:

L`article a pour objet l`étude de la naissance et l`évolution de ladevinette populaire.

L`étude a affirmé la difficulté de situer l`apparition de la devinette dans le temps en discutant quelques points de vues dans ce contexte.

D`autre part, l`étude a suivi l`évolution de ce genre littéraire populaire avec le progrès social Surtout au niveau de son continu et sa fonction.

- توطئة:

في بداية هذا المقال، نودّ أن نشير إلى أمرين هامّين:

- أوّلهما: إنّ حديثنا عن النشأة، في هذا السياق يشمل اللّغز – بوجه عام – الفصيح منه و الشّعبي على السواء بناء على ما يلاحظ من اشتراك و تشابه بين النوعين على نطاق واسع من حيث الشكل و الموضوع و الوظيفة جميعا. أمّا التّطور، فسنحصره تحديدا في مجال اللّغز الشّعبي لأن المقام لا يتّسع لأكثر من ذلك.

- ثانيهما يتمثّل في حقيقة مفادها أنّ تحديد النّشأة و أسبابها لأيّ فن من الفنون ليس بالأمر الهيّن، خصوصا إذا كان هذا الفن موغلا في القدم كالألغاز. فما سنقدّمه بهذا الشأن لا يعدو أن يكون عرضا مختصرا لخلاصة ما توصّل إليه الباحثون في هذا المجال ممن تمكّنا من الاطلاع على آرائهم و اجتهاداتهم، مع ترجيح ما يمكن ترجيحه من تلك الآراء و الاجتهادات بناء على ما توفر لدينا من معلومات على هذا الصعيد.

- نشأة اللّغز الشّعبي:

إنّ الحقيقة المتعلقة بصعوبة تحديد النّشأة و أسبابها قد أكّدها الكثير من الباحثين الذين درسوا هذا الفن بنوعيه: الفصيح والشّعبي. قال إبراهيم بن عيسى الحوراني في كتابه: (جلاء الدياجي في المعمّيات و الألغاز و الأحاجي): << إنّ من اطّلع على التّواريخ و الكتب القديمة، علم بلا ريب أنّ هذا الفن من أقدم الفنون و لكن إلى الآن لم يعرف واضعه و لعلّه أحد الحكماء، فإنّ قدماء الفلاسفة كانوا يشغلون أوقات فراغهم بالألغاز تسلية و تمرينا لكشف المعاني الغامضة...و جاء في

أمثال سليمان: " و اللّغز أقوال الحكماء و غوامضهم ". و لا يضن من هذا أنّ ذلك الحكيم هو واضع هذا الفن لأنّه سمعه ممن قبله كما ذكر في سفر القضاة >> (1).

و يبدوا من هذا القول أنّ صاحبه يؤكّد قدم فن اللّغز، و أنّ واضعه مجهول، و ينسبه – تخمينا – إلى أحد الحكماء الذي يكون قد سمعه ممن قبله، فهذا كله يثبت ما أشرنا إليه من صعوبة تحديد النّشأة. و الملاحظ في هذا القول المقتبس أنه أشار إلى خصائص أساسية في بنية اللّغز و وظيفته و هي: الغموض، و التّسلية، و التّمرين.

و يقول باحث آخر في هذا السّياق: << مما لا شكّ فيه أنّ الألغاز عامة تمسّ جانبا كبيرا من البلاغة و أبوابها، فهي بهذا الوضع تندرج في أصول اللّغة الأولى من حيث الحقيقة و المجاز. و من جانب آخر، يصبح البحث عن بدايات فرع بذاته في اللّغة من الصعوبة بمكان، و من ثمّ يصبح البحث عن تأكيد أسباب محدّدة لنشوئه مذهبا من التّكلف، و منهجا من التقحّم يفتقر إلى تقريبه إلى الأذهان ناهيك بتأكيده >>(2).

و هذا القول يؤكّد – أيضا – الصعوبة البالغة التي تعترض سبيل الباحث في نشأة الألغاز و أسبابها باعتبارها – أي الألغاز – " تندرج في أصول اللّغة الأولى من حيث الحقيقة و المجاز "، و هو بهذا يشير إلى ارتباط البنية اللّغوية للألغاز بباب كبير من أبواب البلاغة و هو الحقيقة و المجاز.

و على الرغم من إقرار الباحث أحمد محمد الشيخ بصعوبة تحديد النّشأة و أسبابها، بيد أنّه قد اجتهد في اقتراح جملة من الأسباب لنشأة الألغاز عند العرب على وجه التّحديد، و لقد كان طرحه لها من باب الاستئناس – كما يقول – و هي(3):

1- طبيعة التعبير:

" بحيث تزداد طبيعة التّعبير لتصل إلى درجة الضرورة ما دام الهدف إنقاذا لقبيلة و فكاكا لأسير...حيث تنعدم السبل فلا مال يفكّ و لا ناصر يغيث و لا إخوان ينصرونه، و لا رفيق فيثأر، و لا قريب فيسمع، و هذا كثير الشواهد في تاريخ العرب و لا سيّما في المعمّى و الأحاجي ".

2- طبيعة اللّغة ذاتها:

يستدلّ الباحث – في هذا الجانب – بما ذهب إليه جلال الدين السيوطي في (المزهر) إلى أنّ " العرب قالت ألغازا و لم تقصد الألغاز بها فصادف أن كانت ألغازا باعتبارها من الغريب المحتاج إلى التّفسير، و هو بهذا يرى أنّ اللّغة قد تستهوي أهلها و فصحاءها إلى طرق أبواب من التّعبير بالقول الواضح و الخفي...إذ المعوّل على هذه الألغاز كما في الملاحن و التّعريض و الكناية و غيرها طبيعة هؤلاء الذّاتية و نفسيّتهم المتبصّرة بدقائق لغتهم ".

3- طبيعة الابتكار و الإبداع:

و هذه الطبيعة ملكة خاصة فريدة، و موهبة فطرية متميّزة، يزيدها طول الممارسة و خبرات الحياة قوة و صقلا و تألقا ،فيطبع صاحبها بطابع العبقريّة الفذّة المبتكرة

في فن من الفنون. " و مثال ذلك أنّ امرئ القيس هو أول من بكى الدّيار و وقف على الأطلال، و هو كما ذكرنا من وصف بمعرفته للأوابد و الألغاز ". " و في عصور تالية نذكر ما يروى عن الشاعر الحكيم أبي العلاء المعري و ما عرف عنه من حبّه للتّعمية، و إلى الإغراب، و إلى سوق الألفاظ المحمّلة بالمعاني و مؤلفاته تشهد بهذا، حتّى ليذهبوا إلى أنّه ألّف ديوانا سمّاه (ديوان الألغاز).

4- طبيعة العصور:

" و هذا السّبب إن لم يكن مباشرا في الأسباب و لكنّه منهج له إذ حتّمت عصور التّطور و النّمو العقلي و المعرفي إلى ضرورة ظهور هذا السبب باعتباره هدفا لتطور اللّغة و وسيلة أيضا "[4].

و إذا كان من المطلوب التّعليق على هذه الأسباب الأربعة التي أوردها الباحث، فإنّ أول ما نلاحظه هو حصرها في لغة العرب دون سواها من اللّغات.و لا نرى – في تصوّرنا – مبررا مقنعا لهذا الحصر الذي يوحي أو يفهم منه – على الأقل–و كأنّ طبيعة التّعبير، و طبيعة اللّغة في ذاتها، و طبيعة الابتكار و الإبداع، و طبيعة العصور ..خاصة بالعرب و لغتهم وحدهم. و هذا التّصور مناف لواقع الأشياء، و طبيعة اللّغة، و حقائق التاريخ جميعا.

فالسّبب الأول المتعلّق بطبيعة التّعبير التي " تزداد لتصل إلى درجة الضرورة ما دام الهدف أنقاضا لقبيلة و فكاكا لأسير " كما يقول الباحث، فهذا السّبب بهذا المفهوم ينطبق على الكثير من الألغاز التي وردت إلينا مع التّراث الشّعبي بصفة عامة،

و إذا ما تصفحنا هذا التراث، وجدنا أنّ اللّغز قد ورد فيه بصورة مختلفة، فقد يكون اللّغز امتحانا قاسيا، ينتهي بالحياة أو الموت...و مثال ذلك " لغز أبي الهول " الذي يرد في ثنايا أسطورة الملك أوديب"[5]. فلقد كان هذا اللّغز مصدر تهديد لأهل مدينة طيبة، حتّى جاء أوديب و حلّ اللّغز، و أنقذ بذلك أهل المدينة[6].

و السّبب الثاني: " طبيعة اللّغة ذاتها التي قد تستهوي أهلها، و فصحاءها إلى طرق أبواب من التّعبير بالقول الواضح و الخفي " على حدّ تعبير الباحث، فهذا السّبب – أيضا – يجري حكمه على سائر اللّغات قديمها و حديثها باعتبار أنّ جلّ اللّغات – إن لم تكن كلها – على امتداد العصور قد عرفت فن اللّغز في معناه العام بشكل أو بآخر.

أمّا السّبب الثالث: " طبيعة الإبداع و الابتكار "، فمن الواضح أنّ هذه الملكة قسمة مشتركة بين مختلف الأمم عبر التّاريخ، و ليست حكرا على أمّة بعينها، أو على نخبة مختارة من الأفراد دون سواهم. ففي كل أمّة ظهر نوابغ حكماء و عباقرة تألّقوا إبداعا و ابتكارا في فنون شتّى و منها فن الألغاز إبداعا و حلاً، فالملك أوديب لم يكن عربيا، و النّبي سليمان - عليه السّلام – الذي اشتهر بذكائه و حكمته و تمكّن من حل كل الألغاز التي طرحتها عليه الملكة بلقيس ببراعة، لم يكن

عربيا[7]، و كذلك الأميرة توراندوت وزوجها الأمير خلف في الحكاية الشّعبية الفارسية[8]. و هذا الذي قلناه الآن عن السّبب الثالث، و ما قلناه من قبل عن الأول و الثاني، كل ذلك ينطبق – بشكل أو بآخر – على السّبب الرابع " طبيعة العصور " فالكاتب يقول في هذا الصدد : " ...إذ حتّمت عصور التّطور و النّمو العقلي و المعرفي إلى ضرورة ظهور هذا السّبب باعتباره هدفا لتطور اللّغة و وسيلة أيضا ". فهذا الكلام عن تأثير عصور التّطور و النّمو العقلي و المعرفي في نشأة الألغاز و تطورها و علاقة ذلك بتطور اللّغة، يشمل جميع اللّغات التي أبدع أهلها ألغازا شعبية أو فصيحة، و تداولوها فيما بينهم، وتطورت تلك الألغاز بتطور اللّغة من خلال التّأثير المتبادل عبر تعاقب العصور و الأجيال.

و مجمل القول – في هذا السّياق – أنّ الباحث الفاضل أحمد محمد الشيخ قد اجتهد و قدّم طرحا شاملا و عميقا – إلى حد كبير – حول الأسباب الممكنة التي تفسر من وجوه عدّة نشأة عند العرب. و كنّا نود لو أنّه أشار – مجرد إشارة – إلى أنّ هذه الأسباب يمكنها أن تنطبق – بطريقة أو بأخرى – على سائر اللّغات التي عرفت فن اللّغز على تفاوت بين لغة و أخرى من حيث السعة و العمق و الدّقة و المرونة، و أنّ للعربيّة النصيب الأوفر من تلك المزايا. لو أنّه أشار إلى ذلك، لكان ما ذهب إليه أقوم قيلا و أهدى سبيلا، و لا سيّما أنّه قد قرّر – في البداية – صعوبة تحديد النّشأة بالنّسبة للألغاز عامة دونما تخصيص.

و للرافعي رأي آخر في تعليل نشأة اللّغز، فهو يرى أنّ الألغاز – بوجه عام –<<غريزة في الفطرة، فإنّ الطفل الذي هو دليل الطبيعة الأولى في الإنسان يسأل عن أشياء كثيرة بوصفها و الإشارة إليها، فإذا سئل هو بمثل ذلك كانت عنده أحاجي، و مما يؤيّد ذلك ورود بعض الأحاجي في أسفار العهد القديم كسفر القضاة و شيء مما يماثلها في ما يعرف بـ (الميثولوجيا) أي علم الخرافات القديمة و الأساطير>>[9]. فالرافعي، في هذا القول، يعلّل نشأة الألغاز بكونها غريزة مركوزة في الفطرة الإنسانيّة، و آية ذلك الطفل – "الذي هو دليل الطبيعة الأولى في الإنسان" – المولع بالسؤال - طرحا و حلا - عن كل شيء بلا حدود. و يستدلّ الكاتب عن هذا المعنى بقدم الألغاز التي وردت في أسفار العهد القديم، و في الأساطير و الخرافات القديمة.

و هذا التعليل الذي ساقه الرافعيّ يبدو منطقيّا و مقبولا، و إلى مثله ذهب بعض الباحثين الغربيّين أمثال (موريس بلوم فيلد) الذي يقول: << إنّ اللّغز نشأ منذ قديم الزّمان حينما كان العقل البدائيّ يمرّن نفسه على التلاؤم مع الكون الذي يحيط به. ذلك أنّه كلّما كانت الرؤية أكثر نضارة، ازدادت الرغبة في إدراك ظواهر الطبيعة و ظواهر الحياة، و إدراك القوانين التي تحيط بالإنسان، و من ثمّ فإنّ الأطفال يحبّون الألغاز و مثلهم البدائيون، و لهذا كذلك فإنّنا نجد الأنواع الأدبيّة الشعبيّة مثل الأسطورة و الحكايات الشعبيّة و الحكايات الخرافية تتضمن الألغاز،

فاللّغز يشير إلى غموض الحياة، و هو في الوقت نفسه يمثّل إدراك العقل البكر >>[10].

و من الباحثين الجزائريين الذين قدّموا أبحاثا قيّمة في الأدب الشّعبي الجزائريّ الدكتور عبد المالك مرتاض. و من تلك الأبحاث كتابه عن الألغاز الشعبيّة الجزائريّة الذي درس من خلاله مدوّنة معتبرة من الألغاز الشعبيّة المتداولة في الغرب الجزائري. بيد أن الدكتور مرتاض لم يكلّف نفسه عناء البحث و الاجتهاد و التّخمين في تحديد نشأة الألغاز الشعبيّة،

و تحليل و تعليل أسباب تلك النّشأة، و قد يكون هذا الموقف صادرا عن قناعة لديه بعدم جدوى الخوض في موضوع موغل في القدم يتعذر معه الوصول إلى رأي قاطع بشأنه، و هذه وجهة نظر نقدّرها، و لكن لا مانع – في نظرنا – من البحث

و الاجتهاد بهدف طرح بعض الآراء الجديدة إن أمكن ذلك، أو ترجيح بعضها على الأقلّ.

يقول الدكتور مرتاض: << و إذا كان مستحيلا معرفة قائلي هذه الألغاز أو بعضها، فإنّ هذه الاستحالة تزداد تأكّدا حين يتّصل الأمر بنشأتها، و الأسباب التي أدّت إلى ظهورها كجنس أدبيّ ينتمي إلى الفنون الشعبيّة >>[11].

و على الرغم من تأكيده حقيقة الصّعوبة التي تعترض طريق الباحث عند محاولته معرفة النّشأة الأولى و أسبابها، تلك الصّعوبة التي تصل - في تصوّره – إلى حدّ الاستحالة، إلا أنّه لم يجد بدّا من الإدلاء بدلوه، و لو من خلال طرح سريع يتّسم بالإجمال و العموم دون تحديدات واضحة، أو دخول في التّفاصيل. يقول: << و على أنّه يمكن للمرء أن يميل إلى أنّ هذا الفنّ نشأ كغيره من الفنون الأدبيّة: إمّا مصادفة، و إمّا قصدا، ثمّ لم يلبث أن تطوّر بتطوّر العقل البشري نفسه، و بتطوّر أدب اللّغة التي قيل فيها، و بتطوّر الجوّ الحضاريّ الذي نشأ فيه >>[12].

و للدكتورة نبيلة إبراهيم – و هي باحثة متخصّصة في الأدب الشّعبي – اجتهادات و مقاربات في هذا المجال الصّعب، تميّزت بقدر كبير من العمق و الإحاطة، فقد بدأت في مقاربتها بطرح السّؤال الجوهري في هذه الإشكاليّة على النّحو الآتي: و لكن لماذا نشأ اللّغز أوّل ما نشأ؟[13].

و في سياق محاولة الإجابة عن هذا السّؤال الجوهريّ، أوردت الباحثة رأيين مختلفين لباحثين غربيين أشفعتهما بشيء من النّقد و التّعليق، ثمّ قدّمت مقاربتها الخاصّة حيال هذه الإشكاليّة.

الباحث الأول هو (موريس بلوم فيلد) الذي أوردنا رأيه كاملا في الصّفحات السّابقة عند تعليقنا على وجهة نظر الرافعيّ حول نشأة الألغاز. و خلاصة ما ذهب إليه ذلك الباحث الغربيّ أنّ اللّغز يمثّل إدراك العقل البدائيّ البكر لمختلف

الظواهر و القوانين المحيطة بالإنسان على مستوى الكون و الحياة، و هو ما يفسر حب الأطفال و البدائيّين للألغاز.

و تقول الدكتورة نبيلة إبراهيم في تعليقها على هذا الرّأي: << حقّا إنّ تعليل بلوم فيلد لنشأة اللّغز مقبول، و لكنّه تعليل شامل ينطبق على نشأة كل الأنواع الأدبيّة الشعبيّة و لا يقتصر على اللّغز وحده. هذا فضلا عن أنّه لم يوضّح لنا سبب نشأة الّغز في صورة سؤال محيّر و جواب محدّد >>(14).

أمّا الباحث الثاني، فهو جيمس فريزر في كتابه: (الغصن الذهبي) و قد قاده البحث عن سرّ نشأة اللغز عند بعض القبائل البدائيّة كقبائل البانتو، و بعض قبائل الهند الصّينيّة إلى ارتباط الألغاز عندهم ببعض العادات التي كانت تمارس في مناسبات و مواسم معيّنة كانتظار سقوط الأمطار، و قبل موسم الحصاد. << ...و مع ذلك فقد أعلن عجزه عن تقديم تفسير موحّد واضح لظهور اللّغز في مثل هذه المناسبات >>(15). و ها هنا تقدّم الدكتورة نبيلة إبراهيم تفسيرها لهذه الظاهرة، فهي ترى أنّ هذه المناسبات و غيرها التي كانت تطرح فيها الألغاز إمّا أن تكون مناسبات يخشى فيها حدوث أزمة، أو يكون فيها مصير الفرد أو الشعب معلّقا.

<< و لا بدّ أنّ الشّعوب كانت تتساءل: هل يسقط المطر المبارك فينمو النبات – أم هل – يحدث جدب و مجاعة نتيجة عدم سقوطه؟ و هل تهب العاصفة في أوان الحصاد فتطيح بالمحصول، أم أنّ الجوّ سيظلّ معتدلا حتّى يتمّ الحصاد؟...كل هذه الأمور كان الإنسان البدائيّ يتساءل عنها. و كم كان يتمنّى لو أنّ مصير الأمور تقرّر بالإيجاب فترتاح نفسه، و ربما كان اللّغز في هذه الحالة مشاركا لشعورهم من حيث أنّه يشترك مع هذه المناسبات في ظاهرة الغموض، فإذا توصّل السّامع إلى حلّ الألغاز، فإنّ هذا الحل يكون ممتلكا لقدر من السّحر من شأنه أن يؤثّر في القوى المجهولة التي تتصرّف في حلّ المشكلات الغامضة >>(16). هذا هو التّفسير الذي قدّمته الدكتورة نبيلة إبراهيم بخصوص ارتباط الألغاز الأولى لدى البدائيّين بمواسم و مناسبات معيّنة، بيد أنّها تستدرك – بعد ذلك – لتقول: << على أنّنا لا نستطيع أن نجزم بأنّ هذا هو التفسير الوحيد للّغز إذا تصفّحنا الألغاز المشهورة التي وردت لنا مع التراث الشّعبي >>(17)، و تضرب لذلك عدّة أمثلة منها ألغاز بلقيس ملكة سبأ مع النّبيّ سليمان – عليه السّلام – و لغز أوديب، و اللّغز الذي طُرح على الإسكندر الأكبر.

و لعلّ هذه الاستثناءات التي ندّت عن منطق التفسير السّابق، هي التي دفعت الباحثة نبيلة إبراهيم إلى مقاربة الإشكالية المطروحة من زاوية أخرى من خلال طرح السؤال الآتي:

<< فما الباعث إذن على خلق اللّغز؟ >> أو بعبارة أخرى، ما الاهتمام الروحي الشّعبي الذي ينشأ عنه اللّغز؟".

و خلاصة الإجابة التي خلصت إليها الباحثة تتمثّل في << أنّ الدافع وراء خلق اللّغز هو اختبار شخص ما في درجة معرفته، و ليس هو الوصول إلى حل اللّغز فحسب >>[18].

و تعلّل ما ذهبت إليه من منطلق أنّ اللّغز يتطلّب سائلا و مسؤولا. و يفترض في السائل أن يكون عارفا بالإجابة سلفا كما أنّ المسؤول يعرف - يقينا – أنّ سائله يملك الإجابة. فالمسألة - إذن - ينظر إليها على أنّها تحدّ تقابله استجابة،
و امتحان للكفاءة ينتهي بالنجاح أو الفشل، و لعلّنا لا نجانب الصواب إذا سمّينا هذا الامتحان امتحان العبور إلى عالم جديد أو مجتمع جديد. ذلك أنّ << السائل يمثّل جماعة يرتبط بعضها ببعض عن طريق المعرفة و الحكمة، أمّا الشخص المسؤول فهو خارج عن نطاق هذه الجماعة، و اللّغز في هذه الحالة يمثّل " كلمة السّر " التي يسمح عن طريق النطق بها بالدخول في مجتمع مغلق >>[19].

و تعليقا على مقاربة الدكتورة نبيلة إبراهيم يمكننا القول بأنّ ربط نشأة الألغاز بمواسم و مناسبات معيّنة أمر يتعذّر تعميمه على كلّ الألغاز في كلّ المجتمعات، ذلك أنّ مواسم الحصاد و انتظار الأمطار، و مناسبات الزّواج و الختان و غيرها ممّا ذكرته الباحثة...هذه المواسم و المناسبات ذاتها قد تصاحبها لدى بعض القبائل و المجتمعات البدائيّة عادات و تقاليد و طقوس مختلفة بعيدة كلّ البعد عن جوّ الألغاز كالقيام ببعض الطقوس الدينيّة، أو ترديد بعض الأغاني الشعبيّة أو ممارسة الرقص و ما شاكله من تعبيرات حركيّة، و قد تكون هذه المجتمعات ذاتها تتداول الألغاز في فضاءات أخرى كمجالس الظُّرفاء و الحكماء، و حلقات الأسمار الشعبيّة، و قد سبقت الإشارة إلى أنّ الباحثة نبيلة إبراهيم نفسها اعترفت بأنّ التّفسير الذي قدّمته – على وجاهته و تماسكه – لا يمكن إسقاطه على كلّ الألغاز.

أمّا تفسيرها الثاني المتعلّق بالباعث الأوّل على خلق اللّغز، و هو اختبار شخص ما في درجة معرفته، فيبدوا لي أنّه تفسير موفّق إلى حدّ كبير، ذلك أنّه يكتسي طابعا أوسع من حيث العموم و الشّمول.

و مع كلّ ما تقدّم، يظلّ سؤال النّشأة مطروحا لأنّ الباعث على خلق اللّغز يختلف عن نشأة اللّغز في حدّ ذاتها، فللنّشأة الأولى أسبابها و ملابساتها الخاصّة التي قد لا تتكرّر عبر المكان و الزّمان إلاّ قليلا، أمّا الباعث المتمثّل في اختبار المعرفة و الكفاءة لدى الآخرين، فيتّسم بقدر كبير من الثّبات و الشّمول و الدّيمومة.

فهل يمكن للاجتهاد أن يسعفنا في طرح مقاربة جديدة حيال النّشأة الأولى للّغز؟ لعلّ المقام – هاهنا – يسمح لنا بأن ندلي بدلونا في هذا الموضوع، و سنبدأ بالإجابة عن السّؤال السّابق بطرح سؤال جديد:

* هل للرؤيا – في المنام – علاقة ما باللّغز ؟

من المعلوم أنّ الرؤيا ظاهرة إنسانية عرفها الإنسان منذ النّشأة الأولى، و هي جملة من المشاهد و العلائق و الرّموز تغشى الإنسان في منامه. و بعد استيقاظه،تمثّل له تلك الرؤيا مشكلة غامضة تحتاج إلى تفسير و تأويل، أو لغزا محيّرا يستدعي حلاًّ و جوابا، فيحاول هو القيام بذلك، أو يحيلها إلى خبير عرف بتفسير الأحلام، و تأويل الأحاديث. و يتأكّد هذا الأمر مع الأحلام التنبّؤيّة التي تشترك مع الألغاز في غموضها، و في كونها يخشى من ورائها حدوث أزمة يكون فيها مصير الفرد أو الشّعب معلّقا كما أوضحنا – من قبل – من كلام الدكتورة نبيلة إبراهيم << فقد يكون اللّغز امتحانا قاسيا، ينتهي بالحياة أو الموت >>[20].

فإذا وجدت لمجموعة من الأحلام التنبّؤيّة تفسيرات صائبة أظهرت الوقائع مصداقيّتها، ففي هذه الحالة، يكون اللّغز بسؤاله الغامض و جوابه مشابها للرؤيا بإشكالها الغامض و تفسيرها. و لعلّ هذا التّشابه يقدّم لنا تفسيرا مقبولا و محتملا للنّشأة الأولى للّغز، و لا غرابة أن يحاكي الإنسان في دائرة الوعي / اللّغز تجربته عالم اللاوعي / الرؤيا.

فالرؤى ليست كلّها صورًا من الرغبات المكبوتة تتنفّس بها الأحلام في غياب الوعي كما تقول مدرسة التّحليل النفسي. فهذا << يمثّل جانبا من الأحلام و لكنّه لا يمثّلها كلّها ، و (فرويد) – على كلّ تحكمه غير العلمي، و تمحّله في نظريته – يقرّر أنّ هناك أحلاما تنبؤيّة >>[21].

فالأحلام التنبّؤيّة التي بنينا على أساسها مقاربتنا هذه حقيقة إنسانيّة ثابتة، يقول عنها الأستاذ سيّد قطب في معرض تفسيره لسورة (يوسف): << إنّنا ملزمون بالاعتقاد بأنّ بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد، ملزمون بهذا أوّلا من ناحية ما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف، و رؤيا صاحبيه في السجن، و رؤيا الملك في مصر، و ثانيا من ناحية ما نراه في حياتنا الشخصيّة من تحقق رؤى تنبؤيّة في حالات متكرّرة بشكل يصعب نفي وجوده لأنّه موجود بالفعل >>[22].

و الملاحظ في الرؤى الواردة في سورة (يوسف) أنّها ارتبطت بأحداث و مواقف مصيريّة على المستويين: الفردي و الجماعي شأنها في ذلك شأن بعض الألغاز التي وردت إلينا مع التّراث الشّعبي العالميّ كما أوضحنا آنفا.

فعلى المستوى الفردي – مثلا – نجد أنّ رؤيا يوسف طفلا قد رسمت مصيره كهلا << فيوسف الطفل، قد أوعزت إليه القدرة الإلهية، في صورة حلم، منذ الصغر، بالمستقبل الطّاهر الذي ينتظره، ثمّ ساقته الأطوار بعد ذلك، عبر وقائع انتهت به إلى أن يعيش نبوءته الحلميّة، واقعا ملموسا، على مقتضى مشيئة الله >>[23].

هذا على المستوى الفردي، أمّا على المستوى الجماعي، فإنّ رؤيا الملك في مصر التي أوّلها النبيّ السّجين يوسف - عليه السّلام – تعلّقت بمصير شعب بأسره، فلقد تنبّأ

النبيّ الملهم – عبر تأويل الرؤيا – بأنّ جفافا كاسحا تنجم عنه مجاعة ماحقة ستلمّ بمصر و ما حولها مدّة سبع سنين، و قدّم اقتراحا عمليّا بين يدي الملك لمواجهة الأزمة القادمة، تمثّل في خطّة استباقيّة أشرف بنفسه على تنفيذها – بنجاح – بعد تعيينه وزيرا للخزينة، و أنقذ بذلك شعب مصر و الشّعوب المجاورة من مجاعة قاتلة.

فهذه الرؤى التنبّؤيّة التي تصنع – في الواقع الفعلي على النّحو الذي رأينا – مصائر الأفراد و الشّعوب منذ فجر التّاريخ البشري، ليس بمستبعد أن تكون ملهمة للإنسان الأوّل في إبداع أشكال أدبيّة مختلفة كالأساطير و الحكايات الخرافيّة و الألغاز و غيرها.

ففي عالم الأساطير – على سبيل المثال – نقرأ في اللّوح السّابع من " أسطورة جلجامش " هذا المقطع المتضمّن رؤيا " أنجيدو " المفزعة:

<< و استيقظ أنجيدو من نومه مذعورا و دخل على جلجامش و قال له: لقد تدبرت الآلهة أمرها يا جلجامش و أحسبها أنّها تدبّر هلاكي، إنّ حلمي اللّيلة كان مزعجا لقد أنبأتني بخطر عاجل، فقد أبصرت نسرا عظيما هوى من السّماء ثمّ حملني في الفضاء عاليا، و ظلّ يصعد بي موغلا في السّماء، ثمّ حدّثني قائلا: " ألق ببصرك الآن إلى أسفل، كيف ترى الأرض و كيف ترى البحر؟ " فلمّا نظرت وجدت البحر كالقصعة و الأرض كقطعة العجين حينئذ تركني أسقط من بين مخالبه فهويت من علٍ إلى الأرض محطّما. جلجامش: الويل لنا إن كانت الآلهة قد أرادت بنا سوءا >> (24).

و لعلّنا لا نجانب الصواب كثيرا إذا زعمنا – على غرار ما تقدّم – أنّ الكثير من النّصوص السّرديّة القديمة منها و الحديثة قد اشتملت على رؤى تنبّؤيّة شكّلت بؤرا مفصليّة هامّة في فضاءاتها الحكائيّة.

و لا يتّسع المقام – هاهنا – إلى إيراد شواهد أخرى تؤيّد ما ذهبنا إليه في هذا السّياق، و لكنّنا سنكتفي – في هذا الصّدد – باقتباسين قصيرين أخذناهما من دراسة علميّة تناولت الجانب الفنّي في القصّة القرآنيّة و تحديدا في قصّة (يوسف) و هي " أحسن القصص " على حدّ التّعبير القرآني، يقول صاحب الدّراسة مبرزا دور الرؤيا في بناء النسق السّردي لقصّة يوسف – عليه السّلام -:

<< و نجد الرؤيا هي بؤرة الإثارة في الحاضر الروائي حيث انبثقت منها الأحداث معلّلة تعليلا سببيّا مركّبا >> (25).

و في موضع آخر من الدراسة يقول: << فالمشهد الروائي الذي بادرتنا به القصّة يحمل رؤيا النبوءة التي يكمن فيها إشعار فنّي بتولّد حدث خطير نتيجة لهذه الرؤيا >> (26).

و بناء على ما تقدّم، يمكننا القول بأنّ الرؤيا التّنبؤيّة- بوصفها ظاهرة إنسانيّة أصيلة و قديمة قدم الحياة الإنسانيّة- قد تكون أحد الأسباب الرئيسيّة التي ألهمت الإنسان الأوّل إبداع فنّ اللّغز الذي يشبه الرؤيا في الغموض و الالتباس من جهة، و القابلية للحلّ و التّفسير من جهة أخرى.

و قبل أن نختم هذا المبحث الذي تناولنا فيه نشأة اللّغز و أسبابها، نورد بعض النماذج المتنوّعة من الألغاز القديمة التي وصلت إلينا مع التراث الشّعبي العالمي. و لعلّ من أشهر تلك الألغاز القديمة ما طرحته الملكة بلقيس على النبيّ سليمان – عليه السّلام – بهدف اختبار ذكائه، و قد أورد هذه الألغاز فريزر في كتابه:(الفولكلور في العهد القديم). " لقد سألته:

ما معنى أنّ سبعة وجدوا مخرجا و تسعة وجدوا مدخلا، و اثنين انساب منهما مجرى، و واحدا شرب من هذا المجرى؟ " فأجاب سليمان على التّو: " أمّا السبعة فهم سبعة أيام الحيض، و أمّا التسعة فهم تسعة شهور الحمل، و أمّا الاثنان فهما الثديان، و أمّا الواحد فهو الطفل ". فسألته مرّة أخرى عن الأرض التي لم ترى الشّمس مرّة واحدة فأجابها : " إنّها الأرض التي تجمّعت فيها المياه بعد الخليقة، و هي الأرض التي انحسرت عنها مياه البحر الأحمر ذات يوم حينما انشطر إلى شطرين،

ثمّ عاد بعد ذلك إلى حالته الأولى ". ثمّ سألته: ما هو الشيء الذي لا يسير حينما يكون حيّا، حتّى إذا مات تحرّك؟ فأجاب:" إنّه الشجرة التي لا تسير و هي حيّة، فإذا قُطعت و صُنعت منها السفينة سارت في عرض البحر ". ثمّ سألته ما هو الشيء الذي يعيش في باطن الأرض و يكون غذاؤه التراب و يتفجّر كالمياه و يضيء البيوت؟ فأجابها الملك: " بأنّه النّفط " [27].

أمّا لغز أوديب الشّهير في التراجيديا اليونانيّة، و الذي أنقذ أوديب بحلّه أهل مدينة طيبة من الهلاك على يد الوحش أبي الهول، هذا اللّغز الشّهير نؤثر أن نورده – هاهنا – عبر هذا المقطع المسرحيّ الجميل لتوفيق الحكيم في مسرحيّته ((الملك أوديب)):

<<- أنتجونه: كيف طرح عليك أبو الهول لغزه يا أبتي؟

- أوديب: قال لي، و قد نفش ريش جناحيه: " أيّها القادم، ماذا جئت تصنع ها هنا؟، فقلت له: جئت أبحث عن حقيقتي. فقال: إليك سؤالا، إذا عجزت عن جوابه، فإنّي أفترسك: ما هو الحيوان الذي يمشي في الصّباح على أربع، و في الظهر على اثنين، و في المساء على ثلاثة؟.
- أنتجونه: هو الإنسان، فهو الذي في الصّغر يحبوا على يديه و قدميه، و في الكبر يستوي ماشيا على قدميه،

و في الشّيخوخة يدبُّ على قدميه و عصا >> [28].

و في التّراث الشّعبي الهندي الكثير من الألغاز و حكايات الألغاز نذكر منها ذلك اللّغز الذي كان يطرحه الملك على كلّ من يرغب في الزواج من ابنته الأميرة الجميلة، فقد كان الملك يُقدّم لكلّ راغب دميتين خشبيتين لهما نفس الشكل و الحجم و الإيقاع، و يطلب منه التفريق بينهما. و بعد محاولات عديدة فاشلة لشبّان كثير يُوفّق ولد خيّاط فقير في المهمّة، بعد أن أدخل إبرتين في أذن إحدى الدّميتين فاستخرجهما من فمها ثمّ أدخلها في أذن الدمية الثانية، فاحتفظت بهما، فاهتدى بذلك إلى حل اللّغز و هو أنّ الأولى لا تطيق حفظ السّر بداخلها إذ سرعان ما تلفظه و كأنّه وخز إبر في أعماقها، أمّا الثانية، فهي تملك القدرة على كتمان السّر . و واضح أنّ المغزى التربويّ الاجتماعي لهذه الحكاية الملغزة يشير إلى تفضيل المرأة الصّالحة التي تستطيع حفظ السّر و كتمانه [29].

و في أدبنا العربي القديم كمّ هائل من الألغاز الشّعريّة و النّثريّة نكتفي منها بهذه المواجهة الثنائيّة بين شاعرين جاهليين معرفين هما: عبيد بن الأبرص و امرؤ القيس، فقد روي أنّ عبيد بن الأبرص الأسدي لقي امرؤ القيس، فقال له عبيد: كيف معرفتك بالأوابد؟ فقال امرؤ القيس:

ألق ما شئت تجدني كما أحببت، فقال عبيد:

ما حبّة ميتة أحيت بميتتها * ورداء ما أنبتت سنّا و أضراسا؟

فقال امرؤ القيس:

تلك الشّعيرة تسقى في سنابلها * فأخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عبيد:

ما السود و البيض و الأسماء واحدة * لا يستطيع لهنّ النّاس تمساسا؟

فقال امرؤ القيس:

تلك السّحاب إذا الرّحمان أرسلها * روّى بها من محول الأرض أيباسا

فقال عبيد:

ما القاطعات الأرض لا أنيس لها * تأتي سراعا و ما يرجعنّ أنكاسا؟

فقال امرؤ القيس

تلك الرّياح إذا هبّت عواصفها * كفى بأذيالها للتّرب كنّاسا

فقال عبيد:

ما الفاجعات جهارا في علانية * أشدّ من فيلق مملوءة باسا؟

فقال امرؤ القيس:

تلك المنايا فما يبقين من أحد * يكفتن حمقى و ما يبقين أكياسا

فقال عبيد:

ما السّابقات سراع الطّير في مهل * لا تستكين و لو ألجمتها فأسا؟

فقال امرؤ القيس:

تلك الجياد عليها القوم قد سبحوا * كانوا لهنّ غداة الروع أحلاسا
فقال عبيد:
ما الحاكمون بلا سمع و لا بصر * و لا لسان فصيح يعجب النّاسا؟
فقال امرؤ القيس:
تلك الموازين و الرّحمان أنزلها * ربّ البريّة بين النّاس مقياسا [30].

و لقد حرصنا على أن تكون هذه النّماذج المختارة من الألغاز القديمة متنوّعة ما وسعنا الإمكان، و على قدر ما يسمح به المقام، فكان شطرها من التّراث الشّعبي السّامي العبرانيّ، و نعني بهذا ألغاز النبيّ سليمان، و ألغاز الشاعرين الجاهليين: امرؤ القيس و عبيد بن الأبرص، و كان شطرها الآخر من التّراث الشّعبي غير السّامي (الهندو – أوربي) ممثّلا بلغز أوديب الإغريقي، و لغز الملك الهنديّ.

- **<u>تطوّر اللّغز الشّعبي:</u>**

لعلّ الحديث عن نشأة اللّغز الشّعبي يستدعي – بالضّرورة – تبعا له الحديث عن تطوّره. و ذلك أنّ النّشأة و التطوّر بعدان معرفيّان يتّسمان في الغالب – بطابع التلازم و التّتابع.

و التطوّر – في مفهومه اللّغويّ البسيط – يعني الانتقال و التّحول من طور إلى طور. و من مستلزمات دلالاته التّغيير،
و التّبديل، و التّجديد، و الحذف، و الإضافة و ما قارب ذلك من المعاني.

هذا عن التّطور بوجه عام، أمّا التّطور الأدبي، فلقد ظلّ تحديد مفهومه محلّ اختلاف بين النقّاد قديما و حديثا بحسب المنطلقات و المناهج، و المدارس النّقديّة و الفلسفيّة التي ينتمون إليها[31]، و هو بهذا يشترك مع جملة المفاهيم الأدبية و النّقديّة المندرجة في إطار نظريّة الأدب.

و على الرّغم من صعوبة تحديد مفهوم دقيق للتطوّر الأدبيّ، بيد أنّه بالإمكان طرح مفهوم عام حوله من شأنه تقريب الفكرة من الأذهان. و عليه، يمكن القول بأنّ التطوّر الأدبيّ هو ذلك التحوّل أو التغيّر الذي يطرأ على قضية من قضايا الأدب عبر العصور بفعل عوامل معيّنة. و يشتمل التطوّر مفهوم الأدب، و وظيفته، و طرق نقده و تقويمه كما يشمل الأجناس الأدبيّة و موضوعاتها، و خصائص أسلوبها، و غير ذلك من القضايا التي تهتمّ بها– عادة – نظريّة الأدب كما أشرنا آنفا.

و العوامل المتحكّمة في التطوّر الأدبيّ كثيرة و متعدّدة، و لعلّ من أبرزها الحقائق النّفسيّة و الفنيّة التي لها دور كبير " إذ هي تشكّل الكثير من جوانب ماهية التطوّر الأدبيّ، فالإدارة القويّة و القدرة الفنيّة من شأنهما أن يخلقا أشياء جديدة، و تفتحا للأدب آفاقا واسعة، و تساعدهما في ذلك العوامل المحيطة:(البيئة،المجتمع،الاقتصاد،الثقافة) [32].

و في ضوء ما تقدّم، يمكننا طرح السؤال الآتي: - ما هي الجوانب التي شملها التطوّر فيما يتعلّق باللّغز الشّعبي؟

لعلّ من أبرز الجوانب التي يمكن أن يمسّها التطوّر بالنّسبة إلى اللّغز الشّعبي هي: المفهوم، و المضمون، و الشكل،
و الوظيفة، و الطقوس التي تُتداول في أجوائها الألغاز الشّعبية. و لنبدأ في مناقشة كل جانب منها على حدة.

أمّا مفهوم اللّغز – بوجه عام – فقد ظلّ في جوهره ثابتا من حيث هو سؤال إشكاليّ يتّسم بالغموض و التّعمية،
و يتطلّب جوابا، أو حلاً محدّدا. و هذا المفهوم الجوهري ألفيناه في مختلف الألغاز التي اطّلعنا عليها، الفصيحة منها
و الشّعبية، في القديم و الحديث على حدّ سواء.

بيد أنّ هناك قضيّة جديرة بالطّرح و المناقشة – في هذا السّياق – لعلاقتها المباشرة بالمفهوم و تطوّره، و هذه القضيّة
هي ارتباط مفهوم اللّغز الشّعبي عند العامّة – على وجه الخصوص – بالحكايات الخُرافيّة و لا سيّما لدى عامّتنا بالجزائر.

يقول الدكتور عبد المالك مرتاض في هذا الصّدد:

<< و لكن عامّتنا توسّعوا في معنى الأحاجي، فلم يعودوا يطلقونها على هذه الكلمات المُلغِزة أو المُحجيّة...
و إنّما أصبحوا يطلقون في بعض الأرجاء، و لا سيّما في أقصى غربيّ الغرب الجزائريّ، هذا الاسم على الحكايات الخرافيّة أيضا >> (33).

و هذه التّسمية ليست مقتصرة على منطقة الغرب الجزائري، بل وجدناها في منطقة وادي سوف حيث يطلق أهلها على الألغاز الشّعبيّة لفظة " الخُرّاف " و لتأكيد هذا المعنى، نقتبس الفقرة الآتية لباحث جزائري آخر مختصّ في الأدب الشّعبيّ الجزائريّ: << و قد يطلق عليه في المفهوم الشّعبي لفظة " المتحاجية " أو " الحجّاية " و يقصد بها اللّغز، في حين أنّ نفس اللّفظة في مناطق أخرى من البلاد يقصد بها الحكاية، أو القصّة، أو الخرّافة،و لكن المصطلح المتداول أكثر للكلام عن اللّغز هو الحجّاية >> (34).

و بناء على ما تقدّم، يفرض علينا منطق البحث أن نسأل عن الأسباب التي جعلت مفهوم اللّغز يرتبط لدى العامّة بالقصص الشّعبيّة و الحكايات الخرافيّة؟، و الحقيقة أنّ لهذا الارتباط جذورا تاريخيّة تعود إلى الموروث الشفويّ الشّعبي في عصوره القديمة على نطاق عالميّ واسع. فالباحثة نبيلة إبراهيم بعدما أوردت لغز أوديب الشّهير، و لغز الاسكندر الأكبر في الإطار القصصي الذي ميّز كلا منهما علّقت على ذلك بقولها:

<< و لعلّ المثالين السابقين يطلعاننا على مقدار ما كان للّغز من تأثير في الأوساط الشّعبيّة إلى درجة أنّه لم يعد يروى مفردا فحسب، و إنّما داخل الحكايات الشّعبيّة و الخرافيّة و لعب دورا كبيرا فيها >> [35].

و في موضع آخر من المرجع ذاته، تؤكّد الباحثة هذه الفكرة فتقول: <<على أنّ تأثير اللّغز في الحكاية الخرافيّة و الشّعبيّة لم يقف عند هذا الحدّ، فهناك حكايات خرافيّة و شعبيّة اتخذت شكل اللّغز بوصفها كلاًّ. و قد سميت هذه الحكايات بحكايات الألغاز. و قد أغرم الهنود بصفة خاصّة براوية مثل هذه الحكايات >> [36].

و في تراثنا السرديّ العربيّ بشقّيه:الرّسمي والشّعبي،ما يعزّز هذا الارتباط الوثيق بين الألغاز ومختلف النصوص السّرديّة [*].

و نلاحظ في سرديّاتنا الشّعبيّة حضورا بارزا للألغاز إذ نجدها في السيّر و القصص الشّعبيّة كما نجدها في الحكايات الخرافيّة.

ففي السيّر الشّعبيّة – على سبيل المثال – يمكن أن نشير إلى حكاية اللّغز التي رويت في أوّل سيرة عنترة. و في سيرة بني هلال << يتمّ التعرّف على حقيقة الشّخصيّة و انتمائها، أو بالأحرى معرفة هويّتها عن طريق إخضاعها لامتحان أو تجربة تُختبر عن طريقها، فتوضع تحت مجهر الملاحظة الدّقيقة فيكشف سرّها من خلال قدرتها، أو فشلها في حلّ الألغاز، و كذلك من خلال إخضاعها لملاحظة سلوكها >> [37].

و لعلّ من أشهر الألغاز الشّعبيّة الواردة في السّيرة الهلاليّة ما يأتي:

اللّغز	الحلّ
- أحلى مناش؟	- لعب الذراري في الفراش
- أثقل مناش؟	- قعدان النّاس على النّاس
- أمرّ مناش؟	- هزّان الرّجال في النعاش
- واش يغلب النّار؟	- النّار يغلبها الماء
- واش يغلب العقبة؟	- العقبة يغلبها الخيل
- واش يغلب الخيل؟	- الخيل يغلبها فرسانها
- واش يغلب الفرسان؟	- الفرسان يغلبهم أولادهم [38].

و في الحكايات الشّعبيّة، نقرأ في المدوّنة السّرديّة الشّهيرة (ألف ليلة و ليلة) اللّغز الآتي << قالت الجارية للطبيب بحضرة أمير المؤمنين: ما تقول في شيء يشبه الأرض استداره، و يواري عن العيون فقاره، قليل القيمة و القدر ضيّق الصّدر و النّحر، مقيّد و هو آبق، موثوق و هو غير سارق، مطعون لا في القتال، مجروح لا في النّصال...إلخ >>.

عجز الطّبيب، فأجابت الجارية أمير المؤمنين: (الزرار و العروة) [39].

و إذا انتقلنا إلى فضاء الحكايات الخرافيّة وجدنا دائرة الألغاز الشّعبيّة تتّسع إلى درجة أنّ بعض الحكايات تقوم أساسا على اللّغز مُشكّلا بذلك بنيتها الأساسيّة، و ما يعرف بحكايات الألغاز التي أشرنا إليها آنفا.

و لعلّ السّر الكامن من وراء هذا التّواجد المعتبر للألغاز الشّعبيّة في بنية الحكايات الخرافيّة، يتمثّل في كون اللّغز يُشكّل تحدّيا و اختبارا لشخصيّة البطل، فقدرته على حلّه تؤكّد – إذن – تفوّقه العقلي بالإضافة إلى تفوّقه النّفسي و العضليّ << فالبطل أو الفاعل عليه أن ينجز كلّ المهام التي توكل إليه...فهو يذهب إلى أماكن لا يتسنّى الوصول إليها، و يجيب على أسئلة تتعذّر الإجابة عليها، و يعثر على الأشياء الضائعة، و يحارب الوحوش و يبني القصور، و يحلّ الألغاز، و يفكّ سحر الشخصيّات أو الأشياء >> [40].

و بناء على ما تقدّم، يمكننا أن نؤكّد الحقيقة التي أثبتها الباحثون بخصوص التداخل أو – بالمصطلح النّقدي الحديث – التناص الحاصل بين الألغاز الشّعبيّة و مجموع الأجناس السّرديّة في دائرة الأدب الشّعبيّ. فاللّغز << يرد مفردا، كما يرد في ثنايا الحكايات الخرافيّة و الشّعبيّة و الأسطورة، و في الملاحم و السّير الشّعبيّة >> [41].

و في هذا السّياق قد يُطرح تساؤل حول العلاقة بين نشأة اللّغز و نشأة الأجناس السّرديّة التي يوظّف فيها؟

فهل نشأ مستقلاً ثمّ وظّف فيها؟ أم نشأ داخل بنيتها، ثمّ استخلص منها ليؤدّي وظائف أخرى خارج النّسق السّردي؟

و بإمكاننا - بناء على الطرح الذي تقدّم – توضيح فكرة الاستقلاليّة من منطلق أنّ اللّغز يفرض تميّزه و استقلاليّة نشأته من خلال مفهومه، و وظيفته و بنيته.. هذه الركائز الثلاث التي تمنحه - دائما – خصوصيّته، و استقلاليّته، و تميّزه عن باقي الأجناس الأدبيّة السّرديّة منها و غير السّرديّة. و هذه الحقيقة تكاد أن تكون محلّ اتفاق بين عموم الباحثين، و لم نعثر على رأي لأيّ منهم – ممّن اطّلعنا على أبحاثهم – يتبنّى الفرضية الأخرى. أمّا توظيف اللّغز في بنية النّصوص السّرديّة الشّعبيّة، فهو من باب التّناص بين مختلف الأجناس و النّصوص الأدبيّة الشّعبيّة، و ليس بمقتصر على اللّغز فحسب؛ ففي الشّعر الشّعبيّ يمكننا أن نجد أمثالا شعبيّة أو مقاطع مختارة من قصص أو سير شعبيّة موظّفة على نحو يلائم بنية الشّعر و إيقاعه. كما نجد أنّ السيّر الشّعبيّة كثيرا ما توظّف الأشعار داخل نسيجها السّردي.

و المثل الشّعبيّ – كأيّ مثل – له مورد و مضرب. و المورد هو القصة التي على إثرها صدر المثل، بل هناك من الباحثين من يعتبر الحكاية الخرافيّة كلّها مثلا اعتمادا على رأي بعض العلماء القدامى كالمفضّل الضبّي و الجاحظ، و على الحكايات الواردة

في كتاب (كليلة و دمنة) [42]. فالتّناص بين مختلف الأجناس الأدبيّة الشّعبيّة حقيقة ثابتة تصلح أن تكون موضوع بحث مستقلّ.

لقد حاولنا في الصّفحات القليلة السّابقة أن نفسّر الأسباب التي جعلت مفهوم اللّغز يرتبط لدى العامّة بالقصص الشّعبيّة و الحكايات الخرافيّة. و لقد تبيّن لنا – ممّا سبق – أنّ أحد أبرز تلك الأسباب قد يكون ما أثبتناه من تداخل أو تناص بين عموم الأجناس الأدبيّة الشّعبيّة و لا سيّما بين الألغاز و النّصوص السّرديّة المختلفة منذ العصور القديمة. فإذا أضفنا إلى هذه الحقيقة حقيقة أخرى تتعلّق بارتباط الألغاز – عند العامّة عادة – بأجواء اللّيل حيث اجتماع الجدّة و الحفدة قبل النوم لسرد الحكايات، و منها حكايات الألغاز.. فلعلّ اجتماع هاتين الحقيقتين جعل العامّة يطلقون لفظ " الخرّاف " – كما في منطقة وادي سوف – على الألغاز من باب إلحاق الجزء بالكلّ، أو تسمية الشيء بشبهه.

كل ما ذكرناه فيما تقدّم يتعلّق بتطوّر اللّغز الشّعبيّ على مستوى المفهوم. فماذا عن تطوّره على مستوى المضمون؟.

يبدوا لنا، من خلال الألغاز الشّعبيّة أنّ مضمون اللّغز يرتبط على نحو وثيق بالبيئة التي يتداول فيها سواء أكان ذلك المضمون ينتمي إلى عالم الأشياء، أم عالم الأشخاص، أم عالم الأفكار على حدّ تعبير المفكر الجزائري مالك بن نبي.

و على هذا الأساس، يتّضح أنّ مضمون اللّغز يعكس – في موضوعاته المحسوسة و المجرّدة على السواء – المستوى الحضاري العام للمجتمع الذي يتداوله.كما أنّ تطوّر هذ المضمون مرهون بالتطوّر الحضاري العام للمجتمع.

و على سبيل المثال - لا الحصر – نورد فيما يأتي نموذجين من الألغاز الشّعبيّة المتداولة في وادي سوف لنبيّن من خلالهما كيف أنّ مضمون اللّغز يتطوّر تبعا لتطوّر الوسائل الحضاريّة التي يستعملها الإنسان.

- **النموذج الأوّل:**

<< صقع و رقع و طاوق جليد اللّيالي إذا رحلت النّاس واطي و إذا قامت النّاس عالي >> (الخيمة).

- **النموذج الثاني:**

<< عندي بنيّة تضحك و عجبتها رويحتها حتّى السلطان يلبس عيفتها >> (ماكينة الخياطة).

فاللّغز الأوّل، عكس مضمونه وسيلة حضاريّة تميّز المجتمع البدوي و هي: الخيمة؛ أمّا اللّغز الثاني، فقد صوّر مضمونه وسيلة حضاريّة جديدة تفاعل معها الإنسان السوفي داخل المجتمع الحضري و هي: ماكينة الخياطة.

هذا على مستوى المضمون، أمّا تطوّر اللّغز الشّعبي على مستوى الشكل، فلعلّنا لا نجانب الصواب إذا زعمنا أنّ الأشكال التّعبيريّة الثلاثة التي عرفت بها الألغاز –

الفصيح منها و الشّعبي – منذ العصور القديمة ظلّت كما هي دون تغيّرات جوهريّة في بنيتها. و هذه الأشكال الثلاثة هي: المنظوم، و المسجوع، و العادي.

بقي لنا – في هذا السّياق – أن نرصد تطوّر الألغاز الشّعبيّة على مستوى الطقوس التي تصاحب تداولها. و يبدو لنا، من خلال النّماذج اللّغزيّة التي تنتمي إلى أمم مختلفة، و التي أوردنا طرفا منها في الصّفحات السابقة، أنّ أهمّ العوامل التي يمكن الاستناد إليها في تفسير طبيعة الطّقوس المصاحبة للألغاز قد تنحصر في عاملين أساسيين:

- العامل الأوّل يتعلّق بطبيعة المجتمع الذي تُتداول بداخله الألغاز.
- أمّا العامل الثاني، فيعود إلى طبيعة اللّغز في حدّ ذاته بنية و وظيفة.

فبالنسبة للعامل الأوّل، نجد أنّ تداول الألغاز لدى بعض المجتمعات البدائيّة قد ارتبط بمواسم و مناسبات معيّنة و في أجواء طقوسيّة خاصة. من تلك المواسم و المناسبات مواسم الحصاد، و سقوط الأمطار، و الزواج، و الختان، و الدفن، و غيرها.

و من الطّقوس المصاحبة للألغاز لدى تلك المجتمعات البدائيّة ما نقلته د. نبيلة إبراهيم نقلا عن الباحث " جيمس فريزر " في كتابه (الغصن الذهبي) على << أنّه كان من عادة قبيلة من قبائل البانتو أن ترقص النّساء عرايا في احتفالات سقوط الأمطار، و هنّ يغنّين: اسقطي أيّتها الأمطار، فإذا اقترب شخص من المكان ضربته النّساء و طرحن عليه الألغاز لحلّها >> [43]. و يحكى << أنّ بعض قبائل الهند الصّينيّة تجتمع قبل موسم حصاد الأرز، و يطرح بعض الأفراد الألغاز لحلّها. و عند حلّ كلّ لغز يصيح الجميع:" دع أرزنا ينمو في الجبال و السهول " على أنّه يمتنع طرح الألغاز للحلّ في الفترة بين انتهاء موسم الحصاد و ميعاد الزرع الثاني >>[44].

فأمثال هذه الطّقوس تتعلّق مباشرة بطبيعة المجتمع الذي يتداول أفراده الألغاز فيما بينهم في مناسبات اجتماعيّة معيّنة وفق معتقدات الجماعة، و عاداتها و تقاليدها.

أمّا بالنسبة للعامل الثاني الذي يعود إلى طبيعة اللّغز في ذاته من حيث البنية و الوظيفة، فإنّه من المعلوم أنّ بنية اللّغز يمكن تقسيمها إلى قسمين: بنية بسيطة، و بنية مركّبة. و كلّ من البسيط و المركّب مرتبط ارتباطا عضويّا بالوظيفة الموكل إليه أداؤها. و عليه، تكون الطّقوس المرافقة ملائمة لهذه الوظيفة التي تحملها تلك البنية.فاللّغز المركّب- مثلا- يصلح لأداء وظيفة التحدّي و الاختبار من قبل السلطان - كما في الحكاية الخرافيّة – الذي يطرح لغزا صعبا على رعيّته، و يعد من يقدر على حلّه بمكافأة كبيرة تتمثّل في تزويجه من بنت السلطان أو تقليده منصبا مرموقا لديه، أو ما شابه ذلك من المكافآت المغرية. فيضطلع البطل بتلك المهمّة. و طبيعيّ أن يلقى مثل هذا اللّغز مصحوبا بطقوس ملكية خاصة. كما يصلح

اللّغز المركّب للتّباري بين فريقين مثلما كان معروفا في منطقة وادي سوف في فترات سابقة ازدهرت فيها الألغاز و الأحاجي. و لقد كانت أمثال هذه المنافسات تتمّ داخل إطار من الطّقوس البدوية تعكس – بصدق – روح البيئة و طبيعة المجتمع معا.

و لقد كانت المنافسات تدور في أوساط الكبار، << و أحيانا تتطوّر إلى التّباري بين عائلتين و أحيانا بين قبيلتين، فتنصب خيمة للرّجال، و تشعل النّار للضوء و تحضير الشاي، و يترأس الجلسة شاعر (القوّال)، و تفتح المنافسة بالبسملة و الصّلاة على النبيّ صلّى الله عليه و سلّم، و يبدأ التّباري بكلمة: حاجيتكم و ما جيتكم، فيفتح السامعون آذانهم و يسبحون في فضاءات اللّغز و أبعاده... >> [45].

أمّا اللّغز البسيط، فيُتوجّه به – عادة – إلى الأطفال أثناء السمر عندما يجتمعون مع الجدة أو الأم حول الموقد

- إذا كانت اللّيلة شتوية - << و يتمّ هذا غالبا قبل النّوم، و يُفترض أن يكون ضوء المصباح

منطفأ >> [46].

و بعدما تناولنا مظاهر تطور اللّغز الشّعبي، نرى من الضروري الإجابة عن سؤال جدير بالطرح في هذا المقام:

- لماذا غدا اللّغز اليوم أقلّ تداولا من الأجناس الأدبيّة الشّعبيّة الأخرى كالمثل و الشّعر؟

و لعلّ القارئ – هاهنا – قد لاحظ أنّنا قارنّا اللّغز في نص السؤال السّابق بجنسين أدبيين دون سواهما و هما: المثل

و الشّعر. و سبب هذا التّخصيص أنّنا نرى أنّ المثل و الشّعر الشّعبيين يُعدّان اليوم من أكثر الأجناس البارزة شيوعا

و تداولا على المستوى الشّعبي و يمكن أن نضيف إليهما النكتة الشّعبيّة. صحيح أنّ بعض الأجناس الشّعبيّة أصبحت تُوظّف – بشكل أو بآخر – في بعض التجارب الشّعريّة أو الروائيّة الحديثة كالأسطورة و السّيرة. و لكنّه – على أيّة حال – يظلّ توظيفا نخبويا لا شعبيا.

من المعلوم أنّ المقام – هاهنا – لا يسمح بالخوض في هذا الموضوع بشكل مفصّل و معمّق غير أنّ ما أشرنا إليه – هاهنا – قد يصلح أن يكون محور بحث مستقلّ أو بحثين حول التداوليّة و الانتشار في الأجناس الأدبيّة الشّعبيّة من جهة، و توظيف النصوص الشّعبيّة في الأدب الرسمي من جهة أخرى.

نعود الآن إلى الإجابة عن السؤال السابق حول محدودية تداول الألغاز الشّعبيّة اليوم قياسا بأجناس أخرى كالمثل و الشّعر؟.

لقد أشار بعض الباحثين البارزين إلى هذه المسألة بشكل عام و سطحي دون تعمّق أو توسّع، فالباحثة نبيلة إبراهيم تقول في هذا الصّدد: << على أنّ اللّغز أوشك أن

يختفي مع عصر الحضارة و المدنيّة الذي نعيشه و لم يختف اللّغز وحده و لكن المقدرة على حلّ اللّغز أوشكت كذلك على الاختفاء. لقد نُسي في زحمة المدينة، و زحمة متطلباتها، أنّ اللّغز وسيلة أساسيّة للتربية >> [47]. و إلى مثل هذا الرأي ذهب الباحث عبد المالك مرتاض إذ قال: << و إذا كان أجدادنا و بعض آبائنا، ربّما كانوا و لا يزالون يُعنون بهذا الجنس الأدبي الشّعبي و يحفظونه خلفا عن سلف، فإنّ الزمن تغيّر و الجيل أصبح غير الجيل، و الحياة غير الحياة، و الحضارة غير الحضارة >> [48].

فالباحثان كلاهما يفسّران الظاهرة بتغيّر الزمن و التطوّر الحضاري العام. و هو تفسير صائب بلا ريب و لكن نراه غير كاف. و لعلّ من شأن الموازنة بين اللّغز و المثل و الشّعر على الصعيد التداولي، أن تضيء بعض الزوايا و الجوانب في هذا الموضوع. فالمثل الشّعبي يضطلع – أساسا – بإصلاح و تقويم السلوك الفردي و الاجتماعي من خلال التذكير بالقيم الأخلاقية و الاجتماعية للمجتمع الذي يتداوله .فالحاجة إليه – إذن – ذات طابع دائم و متجدّد بدوام و تجدّد أنماط السلوك الفردي و الاجتماعي في تنوّعها و تناقضها داخل شبكة العلاقات الاجتماعية الواسعة. أمّا الشّعر الشّعبي، فلعلّ جمعه بين البعدين: الذاتي و الاجتماعي يمنحه قدرا معتبرا من الانتشار و التداول بشكل مستمر خصوصا أنّه كثيرا ما يُستدعى و يُستحسن في مختلف المناسبات الدّينية و الوطنية و الاجتماعية، كما أنّ ارتباطه بالأغاني الشّعبيّة كأغاني الأفراح، و أغاني العمل و غيرها يُعزّز انتشاره و تداوله.

أمّا اللّغز الشّعبي، فلعلّ طبيعة بنيته و مفهومه و وظيفته تجعل دائرة تداوله محدودة خصوصا إذا تحقّق بعده الوظيفي بأشكال أخرى. و البعد الوظيفي يُعدّ – في نظرنا – من أهمّ العناصر في الانتشار و التداول. و تكاد وظيفة اللّغز أن تنحصر في جانبين اثنين: التّعليم و التّسلية. و ممّا لاشك فيه أنّ العصر الحديث قد أبدع و ابتكر في مجالي التّعليم و التّسلية على نحو غير مسبوق. فإذا كان اللّغز وسيلة لاختبار الذكاء و تمرين الذهن على التّفكير و دقّة الملاحظة في جوّ من الفرح و التّسلية، فإنّ عصرنا الحالي قد جنّد – لتحقيق هذه الأهداف و غيرها – المؤسسات و النظم التربوية و التّعليمية، و الثقافية و الفنية و غيرها مع الاستعانة بما أتاحته التكنولوجيا المتطوّرة من أجهزة فعّالة توشك أن تغزو كلّ البيوت كالمذياع، و التلفاز، و الحاسوب...إلخ.

و بناء على ما تقدّم، يتبيّن لنا أنّ اللّغز الشّعبيّ قد حاصره التطوّر الحضاري العام، و ضيّق نطاق تداوله تدريجيّا بأن أوجد بدائل له تؤدّي وظيفته و تقوم مقامه. و في المقابل يبدو أنّ رياح الحضارة الحديثة لم تزعزع خيام الشّعر الشّعبيّ، و الأمثال الشّعبيّة إلا قليلا.

- **خاتمة:**

أكدّ المقال صعوبة تحديد النّشأة الأولى و أسبابها بالنسبة إلى اللّغز الشّعبيّ لإيغاله في القدم. و تمت مناقشة عدّة آراء
في هذا الشّأن. و طرحنا فكرة مفادها إمكانيّة ارتباط النّشأة الأولى برؤى المنام، و لا سيّما الرؤى التنبؤيّة لاشتراكها مع الألغاز في عدّة خصائص.

أمّا تطوّر اللّغز الشّعبيّ فهو يتعلّق – على نحو خاص – بالمفهوم، و المضمون، و الطّقوس و لقد تبيّن أنّ ارتباط مفهوم اللّغز بالحكايات أو " بالخُراف " كما عند أهل سوف ، يعود إلى بعض الأسباب، لعلّ من أبرزها التّناص الحاصل بين اللّغز
و بقية السّرديات الشّعبيّة منذ القدم. و تطوّر المضمون مرهون بالتطوّر الحضاري العام، فيما يحكم تطوّر طقوس اللّغز عاملان: طبيعة المجتمع و طبيعة اللّغز.

و تطرق المقال في الختام إلى محدوديّة تداول الألغاز – حاليّا – بالقياس إلى أجناس أخرى كالمثل و الشّعر، و تبيّن أنّ اللّغز الشّعبيّ – خلافا للمثل و الشّعر – قد حاصره التطوّر الحضاريّ العام، و ضيّق دائرة تداوله بإيجاد بدائل له تؤدّي وظيفته.

- **الهوامش :**

(1) ينظر : أحمد الشيخ، كتب الألغاز و الأحاجي اللّغويّة، الدار الجماهيرية للنّشر و التوزيع و الإعلان، مصراتة، ليبيا، ط2، 1988 ،ص62.

(2) المرجع نفسه، ص – ص 27 ، 28.

(3) المرجع نفسه، ص- ص 28 – 30.

(4) المرجع نفسه، ص 30.

(5) ينظر : د.نبيلة إبراهيم، أشكال التّعبير في الأدب الشّعبي، دار غريب للطّباعة و النّشر و التوزيع، القاهرة، ط3، 1981، ص204.

(6) المرجع نفسه، ص195.

(7) المرجع نفسه، ص – ص 194 ، 195.

(8) المرجع نفسه، ص – ص 211 – 215.

(9) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج3، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1974، ص407.

(10) نقلا عن د.نبيلة إبراهيم، أشكال التّعبير في الأدب الشّعبي، ص191.

(11) د.عبد المالك مرتاض،الألغاز الشّعبيّة الجزائريّة- دراسة في ألغاز الغرب الجزائري- ،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982 ،ص20.

(12) المرجع نفسه، ص20.

(13) أشكال التّعبير في الأدب الشّعبي، ص191.

(14) المرجع نفسه، ص191.

(15) المرجع نفسه، ص192.
(16) المرجع نفسه، ص193.
(17) المرجع نفسه، ص194.
(18) المرجع نفسه، ص205.
(19) المرجع نفسه، ص205.
(20) المرجع نفسه، ص204.
(21) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط10، 1982، ص1972.
(22) المرجع نفسه، ص1972.
(23) د. سليمان عشراتي، الخطاب القرآني(مقاربة توصيفية لجمالية السّرد الإعجازي)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص81.
(24) ينظر: نبيلة إبراهيم، المرجع السابق، ص50.
(25) ينظر: د.خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية- منهجها و أسس بنائها - ،دار الشهاب، باتنة،الجزائر، دت، ص131.
(26) المرجع نفسه، ص149.
(27) ينظر: د. نبيلة إبراهيم، أشكال التّعبير...، ص194.
(28) ينظر: توفيق الحكيم، الملك أوديب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1978، ص63.
(29) ينظر: شوقي عبد الحكيم، الحكايات الشّعبية العربية، دار ابن خلدون، بيروت، ط1، 1980، ص128.
(30) ينظر: عطا رفعت، الألغاز و الحزر الشّعبية بين الماضي و الحاضر، مجلّة التّراث الشّعبي، وزارة الإعلام، العراق، العدد8، السنة8، 1977، ص – ص 99 ، 100.
(31) ينظر: بوزونية عبد الحميد، ظاهرة التطوّر الأدبي بين النّظرية و التّطبيق، الشركة الوطنية للنّشر و التوزيع، الجزائر، 1979،
ص – ص 11 – 36.
(32) المرجع نفسه، ص35.
(33) ينظر: الألغاز الشّعبيّة الجزائرية، ص18.
(34) سعيدي محمد، الأدب الشّعبي بين النّظرية و التّطبيق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص97.
(35) ينظر: أشكال التّعبير في الأدب الشّعبي، ص – ص 195 ، 196.
(36) المرجع نفسه، ص198.
(*) وجدنا في النّصوص السّرديّة من الأدب الرّسمي توظيفا للألغاز كما في " فن المقامات ". راجع - على سبيل المثال – (المقامة القهقرية) من مقامات الحريري.

(37) **ينظر: عبد الحميد بورايو، البطل الملحمي و البطلة الضّحية في الأدب الشفوي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،** 1998، **ص**55.

(38) **المرجع نفسه، ص**56.

(39) **ينظر: ألف ليلة و ليلة، ج**3، **موفم للنّشر، طبع المؤسّسة الوطنية للفنون المطبعيّة، الجزائر،** 1988، **ص**243.

(40) **د. غراء حسين مهنا، أدب الحكاية الشّعبيّة، الشركة المصرية العالميّة للنّشر – لونجمان -، ط**1، 1977، **ص – ص** 85 ، 86.

(41) **ينظر: د. نبيلة إبراهيم، أشكال التّعبير...، ص**211.

(42) **ينظر: د. عبد المجيد قطامش، الأمثال العربيّة – دراسة تاريخيّة تحليليّة -، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط**1، 198، **ص– ص** 30– 35.

(43) **ينظر: أشكال التّعبير...، ص**192.

(44) **المرجع نفسه، ص**192.

(45) **ينظر: بن علي محمد الصالح، الألغاز الشّعبية في وادي سوف، سلسلة الثقافة الشّعبية، (** 2**)، ط**1، 1998، **ص**5.

(46) **عبد المالك مرتاض، الألغاز الشّعبية الجزائرية، ص**21.

(47) **نبيلة إبراهيم، المرجع السابق، ص**202.

(48) **المرجع السابق، ص**19.